النزعة الإنسانيّة في الشريعة الإسلاميّة

د .عبد المحسن قاسم الحاج حمو(*)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على باني أنبل حضارة عرفها التأريخ سيدنا محمد، وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأخيار الذين بنو صرح تلك الحضارة الشامخة بجهودهم ودمائهم، فكان لهم الفضل على كل من نعم بخيراتها إلى يوم الدين.

وبعد فان كتاب الله عز وجل يؤكد التطابق الكامل بين الدين وبين الإنسانية، حيث يقول: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم). الروم الآية(٣٠).

إنّ الإنسانية وفلسفتها على الرغم من ترابطها الذاتي بالإنسان، لا يمكن أن يحددها الإنسان ويضع تفاصيلها، وذلك لعدة أسباب منها:

(*) كلية القانون / جامعة الموصل

أ. أن مدارك الفرد والجماعة ومشاعرهم تتأثر حتماً بمبادئهم الثقافية، وبأوضاعهم الخاصة، وبمصالحهم الأرضية.

ب. أن الفرد أو الجماعة في تكامل دائم، ولذلك فهم في نقص وعجز دائمي عن إدراك أبعاد وجود الإنسان، والأبعاد التي يسير نحوها، ويسعى للوصول إليها، ومن هنا فما يصدر عن الناقص فهو ناقص، وما يصدر عن الكامل فهو كامل.

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق للإنسان، والكون، والحياة فهو العالم بدقائق الأمور، ومجريات الأحداث، فيضع لكل شيء ما يناسبه وللإنسان ما يصلحه ويسعده في دنياه وأخراه، ويأخذ بيده إلى شاطئ السلامة بعد تلاطم أمواج الحياة من ظلم، وخداع، ورذيلة، وغير ذلك لذا رأيت أن اكتب في هذا الموضوع ولا سيما ونحن نعايش بعداً عن هذا الجانب، ونحن على أبواب توديع القرن العشرين حيث يعيش قطرنا في حصار جائر مفروض عليه من قبل زمر الصليبية الحاقدة والصهيونية الغادرة وطوائف الإلحاد الفاجرة.

وأقول ما قاله الشاعر في باب المقارنة بين ما كان عليه أسلافنا في تعاملهم، وفي سلمهم وحربهم يوم ملكنا المشرق والمغرب، وبين مُلكهم اليوم:

- ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطحُ
- وما عجب هذا التفاوت بيننا فكلّ إناء بالذي فيه ينضحُ

وهذا البحث يتكون من المقدمة الآنفة الذكر حيث استعرضت فيها الأسباب والدوافع التي حدت بي للكتابة في هذا الموضوع وأهميته. ويتكون من المباحث الآتية:

المبحث الأول: في حقوق الإنسان في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: في الحق الطبيعي للإنسان في الإسلام.

المبحث الثالث: في حقوق الفرد في دائرة الأسرة.

المبحث الرابع: في النزعة الإنسانية في الحرب.

والخاتمة حيث استعرض فيها النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

والله أسال أن يأخذ بأيدي حكامنا وأمرائنا وقادتنا ومفكرينا وعلمائنا للعمل بكتاب الله وسنة نبيّه والاقتداء بسلفنا الصالح، والله الهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول: حقوق الإنسان في القرآن الكريم

يعيش الناس اليوم في وسط أمواج الوثنية المادية العاتية، ووسط القلاقل والاضطرابات والفوضى، أو وسط الانقلابات الدموية وغير الدموية المتتابعة في الصراع من اجل السلطة في البلاد النامية في آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية في خضمُ هذه الأجواء أريد أن أتحدث في هذا المبحث عن حقوق الإنسان في كتاب الله العزيز في صلة الفرد بالجماعة إن طغيان المادية قد يبعث اليأس في نفوس بعض الناس، ولكن الرجل المؤمن يَنظر إلى الأمور من زاوية الأمل في الأيمان بالله وَحْدَهُ، وفيما قَنّنَهُ مِنْ قوانين في كتابه لحياة المجتمعات بحيث لا تخلف عنها أبداً قال الله تعالى: "وكأيِّن من قريةٍ أمليت لها وهي ظالمة ثُمّ أخذتها واليَّ المصير"[1] والمراد من القرية: المجتمع .

(١) الآية ٤٨ من سورة الحج.

إنّ الاضطرابات السائدة اليوم بين أجيال ما بعد الحرب العالمية الثانية هي أمارات إنذار لتغيير هذه المجتمعات المادية قال تعالى (وضرب الله مثلاً قرية كانت آمِنَة مطمئنة يَأتيها رزقها رغداً من كُلِّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف مما كانوا يصنعون)[٢].

وأنه لو كان هناك في واقع هذه المجتمعات أمراء مصلحون يحولون دون الفساد السياسّي، والاجتماعيّ، والسلوكيّ ما أصاب هذه المجتمعات خوف الفقر وذل الرِّق والاستعباد، ولا سيطر عليها القلق من المصير، والتحصن من أجل ذلك بوسائل التدمير الشامل والتخريب، ولا أطلقت العنان للإباحية والوثنية وإرهاب الأمناء قال الله تعالى: (فلولا كان من القرون من قبلكم ألوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض – إلا قليلاً ممّن أنجينا منهم – واتّبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربُّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)[٣].

إنّ أمارة الإنذار النهائي للتغيير الشامل للمجتمعات المادية التي طغت بماديتها ما جاء في قوله الله تعالى (وإذا أردنا أن نُهلكَ قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ودمَّرناها تدميراً)[٤].

وإن نظرة السخرية التي تنظر بها المادية في الوقت الحاضر إلى الروحية، ونظام القيم العليا في حياة الإنسان هي نظرة مَنطقية لاتجاه الوثنية المادية، ولكن هذه النظرة لا تغير من قيم الروحية والأيمان بها وأثر هذا الأيمان في مستقبل

(٢) الآية ١١٢ من سورة النحل.

(٣) الآيتان ١١٦، ١١٧ من سورة هود.

(٤) الآية ١٦ من سورة الإسراء.

المجتمعات البشرية قال الله تعالى ((زُيِّنَ للذين كفروا الحياة الدنيا، ويَسخَرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب)[٥].

فهل يبدد الأمل في الإيمان بالله يأس هذا الظلام المادي الرهيب، ويَندَفع المؤمنون به إلى المشاركة في الدعوة إلى إصلاح مجتمعاتهم، وعدم التأثر بالبريق اللامع في الحياة المادية المعاصرة؟، إنّ المسلمين في حاجة إلى أن يبلغوا في حاضرهم أولاً درجة الرشد في الإنسانية باتباع أسلافهم، وبذلك يجتازون مرحلة المراهقة، ثم مرحلة الطفولة قبلها.

المبحث الثاني: الحق الطبيعيّ للإنسان في الإسلام

الحق ميزة يقررها الإسلام لشخص معين، ولا يوجد حق في الشريعة الإسلامية إلا ويقابله واجب، **فحق الملكية** لشخص من الأشخاص يقابله واجب على سائر الناس يقضي عليهم باحترام هذا الحق، وعدم التعدي على تلك الملكية، وحق الشخص **في الحرية يقابله** واجب من جهة الآخرين يقضي بعدم جواز استرقاقه أو استعباده وحق الشخص **في المساواة يقابله** واجب على الآخرين، وعلى الدولة أن تمنحه المساواة في التقاضي، وفي العمل، وفي الأجر على العمل نفسه، وهكذا.

ويقسم القانونيون الحق إلى: حق مدني وحق سياسيّ، والحق المدني هو إما ما يثبت للفرد بحسب معاملاته المالية وتسمى تلك الأنواع من الحقوق بالحقوق المالية: كحقّ البيع، وحقّ الشراء، وحقّ الدائن، وحقّ المدين، وحقّ الرهن، وحقّ

(٥) الآية ٢١٢ من سورة البقرة.

المرتهن .. الخ وإما ما يثبت للفرد بوصفه عضواً في الأسرة: كحقّ الزوج، وحقّ الزوجة، وحقّ الأب، وحقّ الأولاد تجاه أبيهم، ومن ذلك حقوق الورثة، والنفقة والحضانة ونحو ذلك تسمى هذه **بالحقوق الشخصية**.

أما الحقوق السياسية: فهي اعم مجالاً من ذلك، ولكنها تشترك مع الحقوق المدنية في أنّ كلاً منهما يثبت للإنسان بوصفه إنسانا.

فالحقوق الأولى تثبت للشخص بحسب معاملاته المالية، أو بحسب مركزه في الأسرة. أما الحقوق الأخيرة فتثبت له بحسب مركزه في المجتمع بوصفه مواطناً في دولة من الدول، كحقّ الانتخاب، وحقّ الترشيح للمجالس النيابية، أو البلدية، أو الوظائف العامة، أو الخاصة، ومن ذلك ما اشترطته الشريعة الغرّاء فيمن يتولى الخلافة، أو القضاء، ونحو ذلك.

هذا التقسيم يقبله الإسلام على علاته، والشريعة الإسلامية قد تكفلت بتفصيل تلك الحقوق وما يتصل بها تفصيلاً لا تسمو إليه أية شرائع أخرى، وللفرد في الإسلام حقوق أخرى بقطع النظر عن كونه مواطناً أو أجنبياً، ودون حسبان لوصفه المالي، أو مركزه في الأسرة والمجتمع وهي المسماة بحقوق الإنسان أو **الحقوق الطبيعية** وقد أنكر بعض المفكرين هذه الحقوق فقالوا: (لا يوجد حقّ طبيعيّ للإنسان، وانما الحقّ هو ما يمنحه المجتمع أو الدولة للشخص وقد وجّه هؤلاء المفكرين إلى (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان)نعتاً يهدمه كلياً من أساسه زاعمين أنه ليس هناك حق طبيعي للإنسان بوصفه إنساناً. وعلى ذلك لاحق عندهم من هذا القبيل إلا ما تقرره كل دولة في داخلها لأفراد شعبها.

وقد تضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أعلنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ / ١٢ / ١٩٤٨ صراحة أن للناس بوصفهم آدميين حقوقاً

أوجبتها الطبيعة على الجميع احترامها والإسلام قد سبق إلى المناداة بهذه الحقوق، إذ ينادي القرآن الكريم بكرامة بني آدم عموما بقطع النظر عن الجنس أو اللون أو الدين فيقول سبحانه وتعالى (ولقد كرمنا بني آدم)[٦] ويقرر مبدأ المساواة بقوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم)[٧].

كما يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المساواة بقوله: (لا فضل ... لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر)[٨] بل يوجه القرآن الكريم نظرنا إلى أن اختلاف الناس في اللغات والأجناس إنما هو من الأدلة على القدرة الإلهية التي يجب أن يتساوى البشر جميعا في الأعتبار بها فقال الله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)[٩].

إن الإسلام قد أرسى دعائم حقوق الإنسان منذ أربعة عشر قرناء وامتاز على كل التشريعات الحديثة من خاصة ودولية ومثالها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بما يأتي:

أولا: أن تلك الحقوق من تقرير الوحي السماوي، فلا يعتريها التبديل والتغيير.

ثانيا: أن تلك الحقوق لا يقررها الإسلام من وجهة عامة نظرية كما فعل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، بل يعضدها بما في تفصيلات الشريعة مما يتعلق بالحقوق الخاصة: من مالية وشخصية وسياسية ولا يمكن فصل الحقوق

(٦) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

(٧) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٨) أخرجه الأمام أحمد في مسنده ٥ / ٤١١.

(٩) الآية ٢٢ من سورة الروم.

الطبيعية عنها فصلاً تاماً، بل الحقوق كلها أيا كان تقسيمها القانوني وحدة متكاملة ترمي إلى صيانة كرامة الإنسان وتكميل ذاتيته سواء فيما يتعلق بربه، أو أسرته، أو بملكيته أو ببني جنسه.

ثالثاً: إنّ الحقوق الطبيعية في الإسلام لها صفة الألزام بالنسبة إلى المسلمين، لأنها من مقررات الدين، ولأنها تتضمن جزاءات دينية ودنيوية على من يخالفها. أمّا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مثلاً أو ما يؤخذ منه من التشريعات فليس من شأنه حماية تلك الحقوق، ولا يعطيها صفة الألزام؛ لأنه لا يتضمن أيّ جزاءات لمخالفة أحكامه أو ضمانات لتنفيذها.

فإذا نظرنا إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان نجد أنه يتكون من ثلاثين مادة تعود كلّ منها عند التأمل إلى حقوق ثلاثة:

(حقّ الحرية (المواد رقم ٣، ٤، ٥، ٩، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٧) وحقّ المساواة في المواد (١، ٧، ١٠، ٢٢، ٢٦) وحقّ الملكية المادة١٧)[١٠].

[وكل هذه الحقوق قد سبق الإسلام غيره إلى تقديرها من الوجهة النظرية، ورتب الجزاء على من لا ينتهكها إذ هي تشريعات سماوية ذات إلزام قال سبحانه وتعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)[١١] وأعطى الإسلام للفرد المسلم الحرية في تقويم اعوجاج الحاكم، فقال الخليفة الأول: (يا أيّها الناس إني وليت عليكم، ولست بخيركم فإن رأيتموني على حقّ فأعينوني، وإن رايتموني

(١٠) غلام محمد نيازي ـ حقوق الأمور في الأسرة ـ ص١٢٩.

(١١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

على باطل فسددوني، و أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم)[١٢] وخطب الخليفة الثاني عمر فقال (يأيّها الناس من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه فقال أحد الحاضرين والله يا أمير المؤمنين لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا فقال عمر الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه إذا اعوج)[١٣].

المبحث الثالث:حقوق الفرد في دائرة الأسرة

للفتاة المسلمة – متى بلغت سن الرشد – الحق: في التزوج وفي تأسيس أسرة بشرط أن تقترن بمسلم، فالقرآن الكريم لا يبيح زواج المؤمنة بغير المؤمن بالله ورسوله محمد عليه الصلاةُ والسلام إذ يقول: (يأيّها الذين أمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهُنَّ الله اعلمُ بإيمانهنَّ، فإن علمتوهُنَّ مؤمناتٍ فلا ترجعوهنَّ إلى الكفار)[١٤].

والكافر كما يطلق على المشرك الوثنيّ الماديّ الذي ينكر الله واليوم الآخر، يطلق كذلك على الكتابيّ الذي لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم: (قل يأهل الكتاب لستُ على شيءٍ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربّكم) وهو القرآن. (وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أنزلَ إليكَ من ربّكَ طغياناً وكفراً فلا تأسَ على القوم الكافرين) [١٥] وقوله سبحانهُ: (لا هنَ حِلٌّ

(١٢) جلال الدين السيوطي – تاريخ الخلفاء – ص٧١ – ٧٢ بتصرف.

(١٣) عباس محمود العقاد – عبقرية عمر – ص١٠٤.

(١٤) الآية ١٠ من سورة الممتحنة.

(١٥) الآية ١٠ من سورة المائدة.

لهم ولا هم يَحلُون لهُنّ)[١٦] وفي إطار الأيمان بالله ورسولهِ يحقُ للمؤمنة أن تعبّر عن موافقتها في اختيار الزوج، أيْ: لا تتزوج مكرهة بحال، فليس الزواج إلاّ عقداً يقوم على الإيجاب والقبول، وعلى التراخي بين الطرفين، ومما يروى في أذن المرأة في زواجها ما رواهُ أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهُ قال: (لا تنكح الايّمُ[١٧] حتى تستأمر، ولا تنكحُ البكر حتى تستأذن، قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها قال: أن تسكت)[١٨].

والمراد بالأيّم: الثيب، ويكفي في البكر سكوتها؛ لشدّة حيائها بخلاف الثيب فلابد من إذنها بالقول.

وعن خنساء بنت خِدام الأنصارية رضي الله عنها (أن أباها زوجها وهي ثيّب فكرهت ذلك فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فردّ نكاحه)[١٩]

ومعنى: (فردّ النبي النكاح أي أبطلهُ وفيه أنه لابدّ في نكاح الثيب البالغ من رضاها وإذنها وإلا فلا يصح وعليه الجمهور. وأما الثيب غير البالغة فللأب إجبارها عند

---

(١٦) الآية ١٠ من سورة الممتحنة.

(١٧) الأيّم: في الأصل التي لا زوج بها بكراً كانت أو ثيبا مطلقة كانت أو متوفى عنها زوجها، ويريد بالأيّم في هذا الحديث: الثيب خاصة. ابن الأثير _ النهاية ١ / ٨٥.

(١٨) أخرجه الإمام البخاريّ في صحيحه في كتاب النكاح (٤١) باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب الا برضاها الحديث رقم (٥١٣٦) في ٩ / ٩٨.

فتح الباري وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب النكاح في باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت ٩ / ٢٠٢ شرح صحيح مسلم النووي.

(١٩).أخرجه الإمام البخاريّ في صحيحه في كتاب النكاح (٤٢) باب إذا زوجّ الرجل ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود الحديث رقم (٥١٣٨) في ٩ / ١٠١ فتح الباري.

بعض الأئمة)[٢٠]. وللمرأة المسلمة الحق قبل زواجها في صداق (مهر) عند عقد قرانها وفي نفقة أثناء الحياة الزوجية، وفي متاع بعد الطلاق، أو بعد وفاة الزوج عنها ... قال الله تعالى في شأن الصداق: (وءاتوا النساء صدقاتهن نِحلة فإن طبنَ لكم من شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً)[٢١] فتقديم الصداق أو المهر للزوجة حقّ واجب لها، لا لأنه ثمن في مقابل الانتفاع (بالبضع)، ولكن لأنه تعبير عن رغبة الرجل في الاقتران بالمرأة ومثل هذا التعبير من جانب الرجل ضرورة نفسية لاحتفاظ المرأة بحيائها إذ شأن الأنثى من حيث الوضع البيولوجيّ أن تكون طالبة للذكر من نوعها.

وإسقاط حق المرأة في الصداق رهن برضاها هي، ممّا يدلّ على أن ما يدخل في ملكية الزوجة ليس للزوج عليه ولاية، وأنه شأن خاص بها.

وفي شأن النفقة أثناء الحياة الزوجية يقول الله تعالى: (الرجالُ قوّامون على النساء، بما فضّل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم)[٢٢].

فجعل قوامة الرجل، وصدارته في الأسرة ومواجهته لشئونها، بسبب تميزه في التحمل، وطاقته في حل مشاكل الحياة: ثمّ بسبب وجوب النفقة عليه؛ لما يملك في استطاعة السعي في سبيل تحصيل الرزق، أكثر ممّا تملك المرأة فهو لا يحيض، ولا يحمل، ولا يلد، وليس لديه العواطف التي تساعد على حضانة الطفل في السنتين الأوليين من حياته، ومن اجل ذلك لديه الوقت وكذلك القدرة النفسية

---

(٢٠) الشيخ المنصور علي ناصف ـ غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول ٢ / ٢٩٢ وهما مالك وابو حنيفة، وعند الشافعي حتى تبلغ وتأذن.

(٢١) الآية ٤ من سورة النساء.

(٢٢) الآية ٣٤ من سورة النساء.

والبدنية على موالاة العمل والسعي في الحياة. ووجوب النفقة على الزوج لا يعني عدم إباحة المشاركة فيها من جانب الزوجة، إن كانت ذات مال، أو ذات عمل تؤجر عليه، ومأذونة فيه من زوجها وإنما يعني فحسب تحديد من يجب أن ينفق من الزوجين على الأسرة الجديدة أهو الرجل، أم المرأة فيها، رفعاً لخلاف يقع بينهما، ممّا من شأنه أن يحول دون أن تكون الزوجية مصدر مودة ورحمة لهما وسكناً لكل منهما.

وأما المتاع – وهو المنفعة المادية التي تعود على الزوجة عندما تنفصم عرى الزوجية بطلاق أو وفاة – فحقّ الزوجة فيه يقول على معنى إنسانيّ يجب أن يتوفر في جانب الزوج، أو في جانب أهله عند وفاته. وهو جانب الرعاية للعلاقة التي كانت قائمة بين الزوجين ومن أجل ذلك ينبغي أن لا تحرج الزوجة في إحساسها الإنساني بعد المفارقة، وتخرج من هذه العلاقة الزوجية وكأنها علاقة سلعة ردت إلى صاحبها، ولو فرض أنّ النفقة كانت واجبة على الزوجة للزوج لكان الأمر بالنسبة له بعد الطلاق أو الوفاة على نحو ما هو للزوجة الآن، أي لكان له متاع مثل الزوجة أو قبل أهلها. قال الله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ من معروف والله عزيز حكيم وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين كذلك يبين الله لكم ءَاياته لعلكم تعقلون)[٢٣]

فالآية الأولى من الآيات الثلاث: تقرر حق المتاع للزوجة المتوفي عنها زوجها في مال زوجها مدة عام، وتوصي كذلك بأن لا تخرج الزوجة من مسكن الزوجية قبل

(٢٣) الآيات ٢٤٠ ـ ٢٤٢ من سورة البقرة.

انقضاء هذه المدة؛ لأن هذا المكث حق لها بسبب العلاقة الزوجية ولكن لها الحق في أن تتنازل عنه كشأن أي حق لها قال تعالى: (فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف)[٢٤] أي فلا غضاضة عليكم فيما قضين في شأن أنفسهن بما هو مقبول وليس بمستقبح في العرف وهدف الآية هو تقرير حق للزوجة على غيرها وليس دعوة إليها بالتمسك به فهي ليست مكلفة لقبول ما يعرض عليها من قبل أهل الزوج، ولا البقاء في مسكن الزوجية مدة عام. وقوله سبحانه (وللمطلقات متاع بالمعروف)[٢٥] يعطي هذا النص الدليل على حق المطلقة في متاع يتعلق بنفقتها وكسوتها وسكناها أيضا، لأن هنا عامل الكراهية في العشرة الزوجية الذي قام الطلاق على أساس منه. وبهذا يفترق نوع متاعها عن متاع المتوفى عنها زوجها.

ولكن يلاحظ عند تقرير حق الزوجة المطلقة في المتاع أن القرآن الكريم يناشد معنى خاصا في الزوج إذ يقول: (.. حقا على المتقين) في حال المطلقة المدخول بها، ويقول: (.. حقا على المحسنين) في حال المطلقة قبل الدخول بها مما يدل على أن هذا الحق للمرأة لا يقوم على مبادلة منها، ولا على أساس من معنى العدل في ذاته، وإنما يتطلب المروءة والإحسان في الإنسان الزوج. فغرضه رعاية إنسانية صرفة ويعود إلى (الدرجة) التي هي للرجال بقوله تعالى: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) [٢٦] وللزوجة المسلمة الحق في الخلع أي الحق في نسخ عقد الزوجية، إن تضررت بالعشرة في غير

(٢٤) الآية ٢٤٠ من سورة البقرة.

(٢٥) الأول ٢٤١ من سورة البقرة.

(٢٦) الأول ٢٢٨ من سورة البقرة.

حاجة إلى الطلاق من زوجها وللمرأة الكتابية الحق في التزوج بمسلم مع الاحتفاظ بدينها بجانب الحقوق الأخرى التي للزوجة المسلمة فالقرآن الكريم يقول: (اليوم) أي بعد فتح مكة وانتصار الإسلام انتصارا مبينا (أحِلَّ لكم الطيِّبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهنّ)[٢٧] أيْ حلّ لكم كذلك.

وبذلك يبتدئ الإسلام عهداً جديداً مع أهل الكتاب وهو عهد المسالم القويّ، وعهد الراغب في إقامة علاقة مودة مع من يزالون يؤمنون بالله واليوم الآخرة على أمل أن يعيدوا النظر في موقفهم من القرآن والرسول والمؤمنين. وللزوجة مسلمة أو كتابية الحقّ في الاحتفاظ بما لها الخاص، وحريتها في التصرف فيه من غير مراجعة زوجها، وفي غير إذن فيه، وللزوج الحق في تطليق زوجته، إن تضرر بالعشرة الزوجية وللأم على ولدها الحق في النفقة وفي الرعاية وحسن المعاملة وكذلك للأب أيضا ففي شأن هذا الحق للوالدين جاء قوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا ألا إيّاه وبالوالدين إحساناً)[٢٨]

المبحث الرابع: النزعة الإنسانية في الحرب

واليك أخي القارئ جانباً جديداً من جوانب النزعة الإنسانية في حضارتنا وهو جانب تنفرد به حضارتنا. إنّ حسن الخلق، ولين الجانب، والرحمة بالضعيف، والتسامح مع الجار والقريب، تفعله كلّ أمة في أوقات السلم مهما أوغلت في

(٢٧) الأول ٥ من سورة المائدة.

(٢٨) الآيات ٢٣-٢٥ من سورة الإسراء.

الهمجية. ولكن حسن المعاملة في الحرب ولين الجانب مع الأعداء والرحمة بالنساء والأطفال والشيوخ والتسامح مع المغلوبين لا تستطيع كلّ أمة أنْ تفعله، ولا يستطيع كلّ قائد حربيّ أنْ يتصف به. ان رؤية الدم تثير الدم، والعداء يؤجج نيران الحق والغضب، ونشوة النصر تسكر الفاتحين فتوقعهم في ابشع أنواع التشفي والانتقام ذلك هو تاريخ الدول قديمها وحديثها. (وهنا يضع التاريخ إكليل الخلود على قادة حضارتنا عسكريين ومدنيين إذ انفردوا من بين عظماء الحضارات كلها بالإنسانية الرحيمة العادلة في اشد المعارك احتداماً. جاءت حضارتنا والعالم كله يسير على سنة الغاب القوي يقتل الضعيف، والمسلح يسرق الأعزل، والحرب شرعة معترف بها بين جميع الشرائع والديانات والأمم والشعوب ومن غير تفريق بين حرب جائرة وحرب ظالمة، ويسترق رجالها ونساءها فعل من غير تحرج ولا تأثم. فلم ترض حضارتنا أنْ تُقرّ هذه الشرعة الظالمة التي تردت فيها الإنسانية إلى مستوى الحيوانية الشرسة، بل أعلنت ان الأصل في العلائق بين الأمم التعارف والتعاون قال الله تعالى: (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) سورة الحجرات الآية (١٣) وبذلك كان السلم هو العلاقة الطبيعية بين الشعوب قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) سورة البقرة الآية (٢٠٨) فإنْ أبت أمة إلا الحرب والعدوان على أمة أخرى كان على هذه الأمة أنْ تستعد لمجابهة العدوان قال الله تعالى: (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم). سورة الأنفال الآية (٦٠) ومن الجدير بالذكر إن مبادئ حضارتنا تحرم الحرب من أجل الغزو ونهب الأموال وإذلال كرامة الشعوب وتعلن ان الحرب المشروعة ما كانت لغايتين اثنتين:

١. دفاع عن عقيدة الأمة وأخلاقها.

٢. ودفاع عن حرية الشعب واستقلاله وسلامته.

قال الله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله). البقرة الآية (١٩٣) وأروع ما نادت به حضارتنا أن الدفاع عن الضعفاء المستذلين في الشعوب الأخرى واجب علينا كما يجب الدفاع عن حريتنا وكرامتنا قال تعالى: (ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا). النساء الآية (٧٥) هذه الحرب التي تعلن للدفاع عن العقيدة، عن الحرية والسلم، هي الحرب المشروعة التي توصل إلى الله، وتمنح الجنة لشهدائنا، وهي الحرب في سبيل الله وما عداها فهي حرب في سبيل الطغيان والفساد وما أروع هذه المقاومة بين الحرب الجائرة في حضارتنا والحرب المعروفة عند الأمم كلها في هذه الآية القرآنية الكريمة: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) سورة النساء الآية (٧٦) ومن اجل ذلك كان من مبادئ حضارتنا في الحرب أن لا تقاتل ألا من يقاتلها ويعتدي عليها قال تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله). البقرة الآية (١٩٤). فإذا قامت الحرب كان علينا أن لا ننسى مبادئنا، فنقسوا ونفسد، ونظلم، وننشر الخراب والدمار.. كلا .. فالحرب الإنسانية الخالصة لله يجب أن تظل إنسانية في وسائلها، وعند اشتداد وطيسها ومن هنا جاءت الوصايا التي لم يسبق إليها التاريخ لوصية أبي بكر لجيش أسامة: (لا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرا إلا

لمأكله وسوف تمرون بأقوام: قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)[٢٩].

ولنبدأ قبل كل شيء برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو رائد حضارتنا وواضع أساسها وشريعتها وهو التعبير الصادق عن أخلاقها وأهدافها ورسالتها. ففي معركة أحد قتل أسد الله حمزة عم النبي واشهر أبطال العرب قتله رجل يقال له وحشي بتحريض من هند زوج أبي سفيان، ولما خر البطل صريعا أخذت هند تفتش عن قلب حمزة حتى احتزته، ثم مضغته مبالغة في التشفي والانتقام، ثم أسلمت هند واسلم وحشي فماذا كان من رسول الله؟ لم يزد على أن استغفر لهند، وقبل إسلام وحشي وقال له: إن استطعت أن تعيش بعيدا عنا فأفعل. هذا كل ما كان من رسول الله مع قاتل عمه حمزة ومع ماضغة قلبه!

ولما فتحت جيوشنا الظافرة دمشق وحمص وبقية المدن السورية واخذوا من أهلها مبالغ من المال صلحا لقاء حمايتهم والدفاع عنهم رأى قادتنا بعد أن جمع هرقل لهم الجموع لينازلهم في معركة فاصلة أن يخلوا المدن المفتوحة ويتجمعوا في مكان واحد ينازلون به الروم مجتمعين وخرج جيشنا من حمص ودمشق والمدن الأخرى وجمع خالد أهل حمص، وأبو عبيدة أهل دمشق، وغيرهما من القادة أهل المدن الأخرى وقال لهم: انا كنا قد أخذنا منكم أموالا على أن نحميكم وندافع عنكم ونحن الآن خارجون عنكم لا نملك حمايتكم فهذه أموالكم نردها إليكم: فقال أهل المدن: ردكم الله ونصركم والله لحكمكم وعدلكم احب إلينا من جور الروم وظلمهم. والله لو كانوا مكانكم لما دفعوا إلينا شيئا أخذوه بل كانوا يأخذون معهم كل شيء يستطيعون حمله.

(٢٩) جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٩٧.

وهل أتاكم نبأ الحروب الصليبية التي شنها علينا الغربيون في القرون الوسطى؟ أما سمعتم كيف كنا نفي ويغدرون، ونصفح وينتقمون، ونصون الدماء ويخوضون فيها إلى الركب وهم يتلذذون ويطربون؟ حين وصل الصليبيون في الحملة الثانية إلى معرة النعمان حاصروها حتى اضطر أهلها للاستسلام بعد أن اخذوا من رؤساء الحملة عهودا مؤكدة بالمحافظة على النفوس، والأموال، والأعراض. فما كادوا يدخلونها حتى ارتكبوا من الفضائح ما تشيب لهوله الولدان. وقدر بعض المؤرخين الإفرنج الذين كانوا في هذه الحملة عدد الذين قتلوهم من رجال ونساء وأطفال بمائة ألف! ثم تابعوا سيرهم إلى بيت المقدس، وشدوا الحصار على أهلها. ورأى أهلها انهم مغلوبون لا محالة، فطلبوا من قائد الحملة (طنكرد) الأمان على أنفسهم، وأموالهم فأعطاهم رايته يرفعونها على المسجد الأقصى ويلجؤون إليه آمنين على كل شيء، ودخلوا المدينة بعد ذلك، فيال هول المجزرة ويال قسوة الإجرام! في سكان القدس إلى الأقصى الذين رفعوا فوقه راية الأمان حتى إذا امتلأ بمن فيه من شيوخ وأطفال ونساء ذبحوا ذبح النعاج فسالت الدماء في المقبر حتى ارتفعت إلى ركبة الفارس وكانت الشوارع تعج بالجماجم المحطمة والأذرع والأرجل المقطعة والأجسام المشوهة ويذكر مؤرخونا ان عدد الذين ذبحوا في داخل المسجد الأقصى فقط سبعين ألفا!

وبعد تسعين سنة من هذه المجزرة فتح صلاح الدين بيت المقدس فماذا فعل؟ لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف غربي بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم وأعطاهم مهلة للخروج

أربعين يوما فجلا منها أربعة وثمانون ألفا لحقوا بإخوانهم في عكا وغيرها ثم أطلق كثيرا من الفقراء من غير الفدية][٣٠].

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع.

الخاتمة

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على خير خلقه، وعلى آله وأصحابه الذين حملوا لواء الإسلام، وكانوا سرجا للهداية لمن ينشدها، وسيوفا تبارة لمن يقف بوجهها، فجزاهم الله عنا خير الجزاء، وبعد فإن النزعة الإنسانية في شريعتنا لا نظير لها – أوضحت ذلك عبر هذه المباحث – لا في إعلان حقوق الإنسان، ولا في قوانين العملاقين المعاصرين أمريكا وروسيا ولا في قوانين من يحابيهما ويدور في فلكهما، ولكل دعوى لا بد لها من حجة وحجتي أن رسول الإنسانية صلى الله عليه وسلم – وخلال اقل من ربع قرن جعل من الرعاة دعاة، ومن الجفاة هداة، فساسوا الدنيا وزعزعوا عروش الطغيان فيما بين المحيطين الأطلسي والهادئ، وأقاموا حضارة وارفة الظلال على الجنس الإنساني، ثم سرى عبير العقيدة الإسلامية بدعوة سلمية إلى سواحل المحيطات وجزرها.

كأندنوسيا وجاور القفار في سهوب سيبريا ومجاهل أفريقيا وأقاصي الهند وفيافي الصين فيستحيل المحيط الهندي والبحر المتوسط والأسود مياها إسلامية بسواحلها وجزرها وتزحف جيوش الإسلام فتكتسح دول البلقان حتى تدك أسوار فينا. لقد عز الإسلام أهله في الخافقين وسما بهم إلى الذرا، ولما نأى المسلمون عن

(٣٠) الدكتور مصطفى السباعي- من روائع حضارتنا – نشر دار السلام بدمشق الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ – ١٩٥٩م، ص ١٠٢-١٠٧ بتصرف.

أحكامه وتعاليمه اصبحوا ماضيا ينطح السحاب وواقعا يلاصق التراب. وقد اقتطفت هذه الأزهار من رياض الشريعة الإسلامية السمحاء فتحدثت عن الحق الطبيعي للإنسان في الإسلام، وبينت سبق الإسلام لغيره في هذا الميدان، وتحدثت كذلك عن حقوق الإنسان في القران الكريم، وقارنت بينه وبين الملل والنحل السابقة، وبينت فضل الإسلام على غيره وان لا صلاح ولا فلاح إلا بالعودة إلى هذا الكتاب الكريم، وبينت زيف نظرة المادية في الوقت الحاضر إلى جانب الروحية ونظام القيم العليا في حياة الإنسان وهي نظرة منطقية لاتجاه الوثنية المادية وبينت أنها لن تفلح في تغيير قيم الروحية والأيمان بها، وأوضحت اثر الأيمان في مستقبل البشرية. كما ان هذه النظرة للإسلام من قبل الوثنية نظرة بعين شوهاء قال الله تعالى: (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) سورة البقرة الآية (٢١٢) وتحدثت عن حقوق الفرد في دائرة الأسرة، وأنها فريدة لا يدانيها نظام في العالم كله، ولم تعرف المجتمعات لا في القديم ولا في الحديث مثل هذه الحقوق وأخيرا تحدثت عن أخلاق المسلمين الحربية وأوضحت البون الشاسع بين أخلاق قادتنا من سلفنا الصالح وبين ما نعايشه اليوم من ظلم الصليبية وحقدها، من مكر الصهيونية وخبثها، ومن طغيان المادية الإلحادية وإجرامها والله أسأل أن ينجي امتنا من براثن الأعداء، وأن يجعل بأسهم بينهم، وأن يأخذ بأيدي أبنائنا للتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم. وآله وصحبه نجوم الاهتداء، ونقول كما قال الشاعر عليه الرحمة:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين